مكانة القرآن في الإسلام والحضارة الإسلامية

أحمد الموسوي

بيّن لنا الله وأخبرنا القرآن الكريم، بأن الإسلام نزل بمستوى وفهم ملائم لكل عصر: **((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم، فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم))**(سورة إبراهيم ٤).، كما إن القرآن بيّن لنا المبادىء الخالدة بدءاً بالأمثال، فيقول الله تعالى: **((ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكّرون))**(الزمر ٢٧).

الروح الشمولية للقرآن الكريم

ومن هذا المنطلق وحده، منطلق الروح الشمولية للقرآن الكريم، يمكن للنموذج الإسلامي في التطور الإنساني الحضاري أن يبرز واضعاً – في المكان الصحيح – وضعاً إجتماعياً متطوراً، منسجماً مع الحاجات الإنسانية الحقيقية، ونؤكد ان هذا النموذج لابد له أن يقوم، من خلال بذل غاية الجهد دون الانحراف عن المبادىء الخالدة للقرآن، وعن حقائق العصر الراهن.

وفي هذا المجال، على المسلمين رفْض محاكات الغرب، كما عليهم تجنّب تقليد الماضي، فمستقبل الإسلام لا يرتكز على إعلان إفلاس العالم، كما انه لا يقف عند ترديد الصيغ الجاهزة التي وجدت كي تساعد على حل مشاكل الناس في العهود المنصرمة.

والحقيقة إن الإسلام – في الرؤية القرآنية – ليس مجرد دين من الأديان، ولم يدّع النبي (ص) يوماً انه قد أرسى قواعد دين جديد وحسب، بل ليذكّر الناس بالدين الأصلي الذي وجد منذ خلْق الإنسان الأول: **((فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))**(الروم ٣٠).

فالإسلام هو الدين الأول والرسالة الأخيرة معاً، إنه البعْد الحضاري السامي للجنس البشري، كما عُرف في كل مستوى من مستويات الوجود، وهو في مبدئه الأساسي، أكثر الأديان عالمية: **((شرع لكم من الدين ما وصّى به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه))**(الشورى ١٣).

فعقيدة الإسلام السمحة الصافية هي التي تحكم المجتمع وتسيّره، وإن أنظمته وقيمه وأخلاقه وتعاليمه هي التي تكوّن منهج حياته في شؤونها كلّها، ومن أروع ما يضمن المجتمع قوياً، أن يكون فيه تكافل اجتماعي يقوم على أساس الإسلام وتعاليمه القويمة.

والتكافل الاجتماعي معناه التساند والتضامن بين الناس، ويجمعهم قانون وعادات واحدة، وإذا قام هذا التكافل على أسس صحيحة، ضمنت فيه عندئذ مصلحة الفرد والجماعة:**((إن هذه أمّتكم واحدة وأنا ربّكم فاعبدون))**(الأنبياء ٩٢).

وكما قال (ص): المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضهم بعضاً.

والتكافل الاجتماعي في الاسلام شامل ومتكامل، يتناول الإمور التالية:

الحرّيات في القرآن الكريم

أهم حرية يقرّرها الإسلام للناس هي انعتاق الإنسان من عبودية أخيه الإنسان، وانعتاق الشعب من عبودية شعب آخر: **((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم))**(الحجرات ١٣).

ومن الحرّيات التي يقرّرها الإسلام للمجتمع، أفراداً وجماعات، هي التالية:

١-حرية المأوى:

((يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها))(النور ٢٧).

٢-حرّية الاعتقاد

((لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ))(البقرة ٢٥٦).

٣-**حريّة التعليم**:

((إقرأ وربّك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان مالم يعلم))(العلق ٣ – ٥).

٤-**حرّية التملّك**:

((يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . إلا أن تكون تجارة عن تراض بينكم))(النساء ٢٩).

فالله شرع للإنسانية من الدين ما تستقيم عليه حياة الإنسان في كل الأزمان، ووضع للعالمين بالإسلام منهجاً متميزاً للحياة، ونظاماً متكاملاً لها، تشمل أصوله وكلّياته وقواعده، كلّ الجوانب، من عقائد وعبادات ومعاملات، وسلوك وأخلاق واجتماع، واقتصاد وسياسة وشؤون دولية، وغير ذلك من ضروب الأعمال: **((وهذا صراط ربّك مستقيماً قد فصّلنا الآيات لقوم يذّكرون))**(الأنعام ١٢٦).

مخاطبة العقل

والشريعة الإسلامية، هداية إلهية ومنحة ربّانية أنارت للناس المسالك، ونبّهتهم إلى أصول الحق والعدل، ودعتهم إلى الخير والعمل الصالح، وصرفتهم عن الشر وسائر الانحرافات، وهي بقدر ثباتها ودوامها وتنزّهها عن التبديل والتغيير لكونها شريعة الله، وارتباطها بالوحي، وثبوتها بالنصوص، ولاتّصافها بكونها الشريعة الخاتمة والخالدة، وهي تخاطب العقل وتهديه: **((قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ))**(الأنعام ١٠٤).

وقال سبحانه وتعالى: **((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم))**(المائدة ١٥ – ١٦).

وقد أحدثت الطفرة الحضارية التي شهدها العالم الإسلامي، إتجاهات مذهلة وغريبة، وأنماطاً جديدة أصبحت واقعاً يحياه المسلمون، ويدفع بهم بعد أن وقعوا في دوّامة

ليس لهم بها قرار، إلى أن يعودوا إلى تشريعهم يستفتونه في كل شيء، لعلّهم يجدون فيه المخلّص والمخرج والاستقامة والهدى، قال تعالى: **((ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع الذين لا يعلمون . إنهم لا يغنوا عنك من الله شيئاً . وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتّقين))**(الجاثية ١٨ – ١٩).

فنظام الحكم في الإسلام، والفكر السياسي والدستوري، والقواعد الأساسية للحكم الإسلامي المعاصر، والعلاقات الدولية في السلم الحرب، والمعاهدات والمواثيق، والمجالس النيابية، والقوانين الإدارية، وما جدّ في المجتمعات المتطورة من مؤسسات، أدخل حياة المسلمين عن طريق الاحتكاك بالغرب والتأثّر به والاقتباس منه، مما يمكن أن يخضع في حكمه لنصوص قطعية من القرآن الكريم والسنّة المطهرة.

القرآن وحاكمية الله

وهذا ما يقتضيه قول الله عزّ جلّ: **((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً))**(النساء ٥٩).

وهكذا فإن التشريع الإسلامي الذي هيمن على حياة الناس مدى قرون طويلة، ولم يضيق بشيء من متطلباتهم، على الرغم من الفتوحات الكثيرة وما نجم عنها، والذي ساعد الأمم المختلفة التي دخلت في الإسلام، في عصور الازدهار على بناء حضارتهم الشامخة، واتسع فاستوعب كل التطورات والمتغيرات بحكمته ومرونته في كل الأصقاع التي دخلها، ومع كل الشعوب التي دانت به وخضعت له، فلا يتوانى أبداً عن التوجيه إلى الطريق الأقوم، والمسلك الأرشد، ولا يتأخّر عن الاستجابة لمقتضيات التقدّم الفكري والعلمي في العصر الحاضر، وذلك بتحقيق التوازن العادل بين المجتمعات، وبقضائه التام على كل الفوارق الجنسية والطبقية، وبحرصه الدائم على ضمان الحق والعدل.

فالإسلام يعترف بالأقوام المختلفة، وحدودها داخل وطنه الكبير، والعمل على توحيدها بالهداية والعدالة، ثم تبدأ مرحلة التضامن الحضاري بين الشعوب المسلمة

للدفاع عن الذات وإنمائها، وأداء الرسالة إلى العالم، ويكون ذلك عندما تظهر إرادة شعوب أمّة واحدة مزّقتها أحداث التأريخ إلى دول متفرّقة، فتقف لتصحّح مجرى التأريخ، وتنسجم مع قدَرها الأعمق، لتجتمع في صيغة واحدة، فعند ذلك ستكون هناك ولادة جديدة، بعد مخاض عسير، تستحق الاندماج الكامل والانصهار في بوتقة الإسلام الجامع، وفي نهضة حضارية جديدة.

إن جوهر دعوة الإسلام وأعمق أبعادها الإنسانية، هي إن الحاكم الحقيقي هو الله، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته، والذين دونه في هذا الكون هم عبيد في سلطانه، وسرّ الإسلام هو في ارتفاعه للحاكمية المطلقة إلى الله، لا إلى الأرض، وقصارى حاكمية البشر إنها مستمدّة من الخالق، والشعار هو الآية الكريمة: **((اعبدوا الله مالكم من إله غيره))**، وهي رسالة تحرير من عبودية البشر للبشر، حين جاء الإسلام للناس **((ليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم))**(الأعراف ٥٧).

وعلى رأس الأغلال، غلّ عبودية الإنسان للإنسان، وحتى حاكمية الرسول (ص) وأهل البيت (ع)، مقيّدة بأمر الله تعالى، والسيادة فيها للشرع وحده.

القرآن يتحدّى

وأخيراً، لابد من كلمة، وهي إن الحضارة الإسلامية بصيغتها الناضجة، مركّب لمجهود أمم مسلمة مختلفة، تضافرت على إبداعها ونشر إشعاعها بحيث أصبحت هي الحضارة الأولى للإنسان طوال العصور من تأريخ الإنسانية، وظلت هذه الحضارة هي الأصل المشترك لأمم وأقوام أسهمت في إقامة هذه الحضارة المزدهرة، فالمنبع الحضاري للأمم التي تدين بالإسلام هو لا شك منبع حضاري واحد، وإن كانت كل أمّة قد ألقت بطابعها الخاص على الأصل المشترك، وأعطته من صفاتها المميزة.

ومن خصائص الأمّة الإسلامية، وحدتها في عقيدتها ومُثُلها وقيمها وأسلوب تفكيرها، وإن الإسلام طبعها بطابع مميز لها عن الأمم الأخرى، لكن أقاليمها ظلت تحتفظ بنوع من الخصوصية، نتيجة لسماح الإسلام وفضْل السياسة الإنسانية المرنة التي اتبعها المسلمون عند قيام الدولة الاسلامية العتيدة.

وهاهو الإسلام، وبعد أربعة عشر قرناً، ما زال يتحدى، ومن الصعب على كل عالِم نزيه أن يزعم غير ذلك، ومن أجل هذا نرى العديد من مفكّري العالم، يشهرون إسلامهم على الملأ، فالإسلام بخير، وهو الذي كفل لهذا المسلم أن يبقى في القرن الواحد والعشرين ثابتاً على المبادىء الحقّة لا يتزعزع أبداً.